

الفكر المصرى فى العصر الحديث

(١)

من الشخصيات المنسية فى التاريخ المصرى الحديث شخصية محمد بك الألقى الذى أو شك أن يتترع الملك من محمد على .
هذا المملوك من أعجب الشخصيات وأقدرها أيضًا . وأنا أحكى لك حكايته بسبب صلته بالفكر المصرى الحديث ، وأعرفك به حتى نستكشف قصة العلاقات والصلات الفكرية بين مصر وأوربا قبل قدوم الحملة الفرنسية التى قادها نابليون بوناپرت وهو يحلم بإقامة إمبراطورية الشرق ، فقد شاع خداع أن هذه الحملة هى التى فتحت أبواب الحضارة الحديثة فى مصر .

كان محمد الألقى من مماليك مراد بك الذى انهزم أمام قوات بوناپرت فى معركة الأهرام الشهيرة ، وقد اشترى مراد بك هذا المملوك بألف أردب من الغلال ولذلك سمي بالألقى ، وكان جميل الصورة ، صعب المراس ، قوى الشكيمة ، فأحبه مراد بك وأعتقه .
واشتهر الألقى بك شهرة عظيمة ، وما زال أحد شوارع القاهرة يحمل اسمه ، حيث كان قصره يقع على ناحية هذا الشارع أمام بركة الأزبكية التى ردمها الخديوى إسماعيل وجعلها حديقة عندما أنشأ دار الأوبرا التى احترقت ، وقبل ذلك احترق قصر الألقى فى ٢٦ يناير ١٩٥٢ فى أثناء حريق القاهرة المعروف ، وكان هذا القصر الجميل العربى الطراز قد أصبح فندقًا هو فندق شبرد .

وقصة هذا القصر من أعجب القصص ، فقد وضع الألقى بك نفسه تصميمه الهندسى ، ورسم له صورة فى ورق كبير ، وأعطى التصميمات لأجد أمرائه لتنفيذها ، وكان هو غائبًا خارج القاهرة ، فلما حضر ، وجده قد أخطأ فى الرسم فاغتاز وهدم غالب ما بنى ، وهندسه على مقتضى عقله ، وأوقف أربعة من أمرائه على البناء ، كلٌّ أمير فى جهة من جهاته الأربع .

وقد وصف الجبرتي هذا القصر وصفًا شائقًا ، وقال : « إن الألقى وضع فيه التحف والأشياء والتحف العظيمة التي أهداها إليه الإفرنج ، وذكر أنه أهدى إليه من الإفرنج أيضًا فسقية رخام في غاية العظمة ، فيها صورة أسماك مصورة يخرج الماء من أفواهها ، جعلها في البستان » .

وذكر الجبرتي أن الأستاذ الفاضل الشيخ حسن العطار الذي أصبح شيخًا للأزهر فيما بعد ، كتب بيتين من الشعر نقشًا بماء الذهب أعلى باب قاعة الجلوس وهما :

شُموس التهاني قد أضاعت بقاعة
محاسنها للعين تزداد بالألف
على بابها قال السرور مؤرخًا
سما سعاداتي تُجدد بالألقى

وأقام الألقى في قصره آخر شهر شعبان ٢١٢ هـ ، وأمضى فيه ستة عشر يومًا حتى منتصف شهر رمضان ، ثم ذهب إلى إقليم الشرقية مقر حكمه .

ووصف الجبرتي شخصية محمد بك الألقى ، فقال : إنه بعد أن كان فاجرًا ظالمًا عسوفًا ، ترزّن عقله وانضمت نفسه ، وتعلق قلبه بمطالعة الكتب ، والنظر في العلوم والفلكيات والهندسة ، وأشكال الرمل ، والأحكام النجومية ، والتقويم ومنازل القمر ، ويسأل عن له إلام بذلك ليستفيد منه ، واقتنى كتبًا في أنواع العلوم والتواريخ ، واعتكف بداره ورغب في الانفراد بنفسه » .

ومن أعاجيب الألقى بك عندما كان حاكمًا لإقليم الشرقية أنه صنع قصرًا من الخشب مفضلاً قطعًا ويركب بشناكل متينة قوية ، ويحمل على عدة جبال ، فإذا أراد التزلول في محطة تقدم الفراشون وركبوه ، فيصير مجلسًا لطيفًا يصعد إليه بثلاث درج ، ويفرش بالطنافس والوسائد ويسع ثمانية أشخاص ، وهو مسقوف وله شبايك من الجهات الأربع ، تفتح وتغلق بحسب الاختيار ، وحوله الأسرة من كل جانب ، وكل ذلك من داخل دهليز .

وعندما كان الألقى في إقليم الشرقية وصلت حملة بونابرت إلى مصر ، واتخذ نابليون من قصر الألقى في حى الأزبكية مقرًا للحكم ، وفي حديقة هذا القصر قُتل الجنرال كليبر بطعنة خنجر من يد سليمان الحلبي .

ثم أصبح قصر الألفى في عهد محمد على مقراً للمدرسة الألسن التي أنشأها رفاة بك . . حتى تحول إلى فندق شبرد واحترق يوم ٢٦ يناير ١٩٥٢ كما قلت لك .

وعندما احتل الفرنسيون مصر سافر الألفى بك إلى بلاد الإنجليز ، واختار من مماليكه خمسة عشر شخصاً أخذهم معه . وولى أحد مماليكه (بشتك بك) - ويسمى الألفى الصغير - مكانه وأوصى أمراه ومماليكه بطاعة خليفته ، وسافر وغاب سنة وشهراً وبضعة أيام .

وكانت رحلة الألفى بك إلى إنجلترا من أهم دلائل الانصال بين مصر وأوروبا ، وقد حدثت عن صلته بالإفرنج الذين قدموا له هدايا عندما بنى قصره الشهير ، وذكرت لك ما رواه الجبرتي عن المعارف والعلوم التي كان يهتم الألفى بك بدراستها ، حتى استطاع تصميم رسم هندسي لقصره الذي كان من أجمل قصور القاهرة .

وقد عاد الألفى بك من إنجلترا إلى مصر بعد خروج الحملة الفرنسية ، وكان محمد على قد تولى الحكم ، وكانت عودة الألفى من أخطر الأحداث في تاريخ مصر الحديث ، فقد أحضر معه أحدث الأسلحة من إنجلترا بعد أن عقد معاهدة في لندن مع حكومة بريطانيا .

وكان الألفى قد عين له سفيراً في بريطانيا ، اسمه (أمين بك) ، الذي وصل إلى الإسكندرية في عدة مراكز وأشخاص من الإنجليز ، كما يقول الجبرتي ، ثم أصدر أمراً لسفيره (أمين بك) بالذهاب إلى إنجلترا ، فسافر وأحضر له مطلوبه من السلاح والعتاد ، وكان الألفى بك مقيماً في بلدة (حوش عيسى) في البحيرة ، حيث كان يستقبل الإنجليز ويقم لهم الحفلات ، ويدرب عساكره بالسلاح الحديث .

يقول الجبرتي : إن الألفى بك شاع ذكره في الآفاق ، وإن الدولة العثمانية لا تخاطب غيره ، برغم أن محمد على كان قد عينه السيد عمر مكرم والياً على مصر .

وأعد الألفى بك أول جيش حديث في مصر ، ثم استعد للقاء (محمد على) ومحاربه وعزله ، وإعلان استقلال مصر ، ووصل بجيشه إلى بلدة (شيرامنت) في الجيزة ، وكان - كما يقول الجبرتي - في هيئة عظيمة هائلة ، وجيوش تسد الفضاء ، وهم مرتبون طوابير ، ومعهم طبول ، وصحبته قبائل العرب من أولاد على والهنادى وعربان الشرقية .

ووقف محمد على مع عساكره الأرتوود مذهولاً ، وهو يتعجب ويقول :

- هذا طهاز الزمان . . وإلا إيش يكون ؟

ولم يستطع محمد على الاقتراب من جيش الألقى بك ، وهو أول جيش حديث أنشئ في مصر الحديثة .

ثم حدثت المفاجأة المذهلة التي يروها لك الجبرتي بكلماته :

« ولم يزل (الألقى) سائرًا حتى وصل إلى قريب قناطر « شبرامنت » ، فنزل على علوة هناك ، وجلس عليها ، وزاد به الهاجس والقهر ، ونظر إلى جهة مصر (القاهرة) وقال : يامصر انظري إلى أولادك وهم حولك مشتتين متباعدين مشردين ، واستوتنك أجلاف الأتراك وأراذل الأرتوود ، وصاروا يقتضون خراجك ، وبحاربون أولادك ، ويقاتلون أبطالك ، ويقاومون فرسانك ، ويهدمون دورك ، ويسكنون قصورك .

ولم يزل يردد هذا الكلام وأمثاله ، وقد تحرك به خلط دموى ، وفي الحال تقايا دماً وقال :

– قضى الأمر ، وخلصت مصر لمحمد على ، وما تمّ أحد ينازعه ويغالبه .

ثم أحضر أمراءه وأمر عليهم شاهين بك .

وكان محمد على يقول كما روى الجبرتي أيضًا :

« ما دام هذا الألقى موجودًا لا يهتأ لى عيش ، ومثالى أنا وهو مثال بهلواتين يلعبان على

الحبل ، لكن هو فى رجليه قبقاب .

فلما أتاه المبشر بموت الألقى قال بعد أن نحقق من ذلك :

– الآن طابت لى مصر ، وما عدت أحسب لغيره حسابًا .

وكان الموت المفاجئ لمحمد بك الألقى من الأحداث المثيرة فى تاريخ مصر الحديث ، وقال

الجبرتي : إن هذا كان من سعد (محمد على) ، وقد بكت عليه مصر حتى إن بنات العرب

اجتمعن لما بلغهن موته ، وصيرن يندبنه بكلام عجيب تناقلته أرباب المغاني يغنون به على آلات

اللهو المطربة ، وركبوا عليه أدارًا وقوافى .

لقد حكيت لك كل هذه الحكايات لسبيين :

١ – أن اتهام عصر المماليك بأنه ظلم وظلام اتهام باطل ، ويجب علينا إعادة النظر فى تاريخ

مصر حتى نصل إلى الحقيقة ، فقد كان الألقى بك يتعنى بمصر وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة ، لأنه

آمن بأنه مصرى ، ونحن لا نعرف جنسيته الأصلية ، ولا من أى بلد جاء . فى حين ظلّ محمد

على وكل أسرته – عدا إبراهيم باشا – يتفاخرون بانتمائهم التركى مع أنهم من الألبان وليسوا من

الترك ، وكان سبب هذا التفاخر بالانتماء التركي راجعاً إلى وجود السلطة الحاكمة الكبرى في اسطنبول عاصمة الخلافة الإسلامية العثمانية .

وعندما اشتدّ طموح محمد علي بفضل مصر وعسا كرمصر من الفلاحين حتى وصل جيش مصر بقيادة إبراهيم باشا بن محمد علي إلى أبواب اسطنبول ، لم يكن (محمد علي) نفسه مؤمناً بمصر ، برغم أنه قال إن أصحاب نعمته هما : الفلاح المصري والسلطان محمود خان سلطان آل عثمان . لأن ولي نعمته الحقيقي كان الفلاح المصري ولم يكن السلطان التركي ، وقد عبر إبراهيم باشا عن هذه الحقيقة عندما قال إنه مصري ، وإن شمس مصر هي التي نصرته . ولكن الملوك من أبناء محمد علي ظلّوا على غيهم القديم ، يتفاخرون بأنهم أتراك ، مع أنهم كانوا من أهل ألبانيا ، وكانوا يستخدمون اللغة التركية في مراسيمهم ، حتى أصبح في قصر عابدين دفتران أحدهما تركي والثاني عربي ، وهذا الازدواج اللغوي لم يكن موجوداً في عصر المماليك ، فقد كانت رسائل السلاطين المماليك تُكتب باللغة العربية ، وكان منهم شعراء فصحاء بالعربية ، ومنهم السلطان المؤيد ، صاحب الجامع الشهير في القاهرة عند باب زويلة .

٢ - أن اتهام مصر بأنها عرفت النهضة الحديثة بعد قدوم حملة بونابرت باطل من أساسه ، فقد كانت مصر على صلة دائمة بأوروبا ، حتى إن محمد بك الألفي سافر إلى إنجلترا كما رويت لك ، وشكّل جيشاً مصرياً عصرياً بأسلحته المتقدمة عندما كان نابليون بونابرت يسكن في قصره عند شاطئ بركة الأزيكية في قلب القاهرة .

لقد اتهم عصر المماليك في مصر بأنه عصر استبداد وظلم وظلام ، ولكنني حاولت إعادة النظر في هذا الموضوع بعد قراءات طويلة في تاريخ سلاطين المماليك ، ثم تاريخ الحكم التركي العثماني بعد سقوط آخر السلاطين المماليك « الغوري » تحت سنابك الخيل في موقعة (مرج دابق) على مشارف مدينة حلب ، حيث امتدّ ملكه من مصر إلى الشام وإلى ما يقرب من طرابلس الغرب . وحتى وادي حلفا في الجنوب . كما كان يسيطر على عدن في أقصى بلاد اليمن ، وكان الحجاز أيضاً مما ينضم إلى سلطته بسبب الأماكن المقدسة التي كان سلطان مصر يتولى حمايتها .

ثم انتهت دولة سلاطين المماليك في مصر ، بعد دخول السلطان سليم بن عثمان القاهرة ، وانهزام السلطان طومان باي عن طريق الخيانة والغدر أمام قوات الغزو التركي العثماني لمصر ، حتى عُلق (طومان باي) مشنوقاً بجبل على باب زويلة في مشهد دراميّ عنيف ذرفت فيه

القاهرة كل دموعها ، حتى اختلطت دموع النساء والأطفال بماء النيل .
 ولكن شتى (طومان باى) لم يمه عصر الماليك ، بل إنهم استمروا يشاركون الأتراك في
 السلطة ، فقد كان هؤلاء الماليك قد تمصروا ، وكان يحلو لهم تسمية أنفسهم بالأمرء
 المصريين ، وكان بعض عظماء الفلاحين من أهل مصر يشركون معهم في الإمارة أيضاً ، أى في
 سلطة الحكيم ، وقد روى الجبرئى حكايات كثيرة عن هؤلاء الأمرء الفلاحين الذين كان لهم
 دور ظاهر وبارز في الحياة المصرية ، حتى إن أحدهم اتخذ لنفسه لقباً هو : الفلاح .
 وكان هذا الأمير الفلاح مصرئاً قوئاً أئياً ، لأنه رفض أن يُباع أطفال الفلاحين من
 الصبيان والبنتات في سوق الرقيق كما يباع أطفال الماليك من بيض وسود ، وقال كلمته التى
 أبطلت بيع أبناء الفلاحين في السوق :

« هؤلاء أحرار لا يُباعون » .

واشترى الأمير الفلاح المملوكى كل أطفال الفلاحين ورددهم إلى أهلهم أحراراً سلمين .
 بعد هذه الحادثة لم يجرؤ بكوات الماليك على خطف أطفال الفلاحين من القرى ، ويبيعهم
 في السوق كما يباع الماليك .
 خلال هذه الرحلة الطويلة لم يحدث أن أصبح الطفل المصرى رقيقاً يباع في سوق ، عندما
 كانت أسواق الرقيق قائمة في الشرق وفي أوربا أيضاً ، بل إنها كانت من أروج الأسواق خلال
 الحروب الصليبية التى قضى عليها سلاطين الماليك بعد انتصارات صلاح الدين في معركة
 حطين .

وفي عصر الأمير المملوكى (على بك الكبير) الذى استقل بمصر ونازع سلطان آل عثمان في
 اسطنبول ، وكانت له دولة ممتدة الأطراف مثل دولة السلطان الغورى ، شارك على بك الكبير
 في السلطة أميران فلاحان مصريان ، هما الأمير (سويلم بن حبيب) في الشمال عند قلوب ،
 والأمير همام في الصعيد ، حيث كانت له السلطة ابتداءً من أسوط حتى أقصى الجنوب ،
 وكان مقر حكمه في مدينة فرشوط ، وقد وقّع معه (على بك الكبير) معاهدة سلام .
 - إن فكرة إعادة تصحيح التاريخ المصرى تحتاج إلى إعادة النظر في حقائق هذا
 التاريخ ، وقد كان أستاذنا الدكتور محمد حسين هيكل قد وضع بعض معالمها عندما ادعى
 الاستعماريون الإنجليز أن مصر لم تعرف الاستقلال منذ نهاية عصر الفراعنة حتى الاحتلال
 البريطانى لمصر سنة ١٨٨٢ بعد سقوط الثورة العرابية .

زعموا أن حكام مصر كانوا من الأجانب منذ انتهاء عصر الفراعنة ، وكان ردّ الدكتور هيكل باشا عليهم هو ما قاله من أن ملوك الإنجليز وملكاتهم ليسوا من الإنجليز ولكنهم من الجرمان ، وهذه حقيقة تاريخية ، وقد وجدت إحدى ملكات بريطانيا مدفونة في كنيسة ألمانية في قلب ألمانيا ، لأنها أوصت بأن تدفن في أرض أجدادها .

ولكن آخر ملوك أسرة محمد علي - وهو الملك فاروق - أوصى بأن يدفن بعد موته في مصر ، وقد دفن جثمانه في مصر بالفعل .

هذه المفارقة في الفكر هي التي تحدد شخصية مصر .

ملكة بريطانية من أصل ألماني توصى بأن يدفن جسدها في ألمانيا .

وملك مصري من أصل تركي يوصى بأن يدفن جسده في مصر .

لذلك قلت لك إننا نظلم عصر المماليك ظلماً كبيراً عندما نتهمه بالظلم والظلام معاً . . .

فقد كان عصرهم هو عصر الظلم ، ولكنه لم يكن عصر الظلام . . . ويجب علينا عندما نفكر في تاريخ مصر أن نفرق بين الظلم والظلام .

وقلت لك أيضاً إنهم كان يحلو لهم أن يلقبوا أنفسهم بلقب :

« الأمراء المصريين » .

وهذه التسمية في ذاتها تحمل شخصية مصر .

وهذا الفكر المستنير دافع الدكتور محمد حسين هيكل باشا عن شخصية مصر ، وقال : إن

الحاكم لو كان أجنبيّاً لا يلقى شخصية الشعب الذي يحكمه مادام خاضعاً لإرادة شعبه الذي يحكمه ؛ لأن الحاكم تابع للشعب ، وليس الشعب تابعاً للحاكم .

وخلال تلك الأيام التي ثارت فيها قضية الحاكم والمحكوم ، نشرت مجلة (المقتطف)

ترجمة لكتاب عالم بريطاني اسمه (السير إدوارد كيث) ، وهو عالم متشعب الانجهايات في

الجيولوجيا ، والتاريخ ، والجغرافيا والآثار ، ولكنه في ثنايا كتاباته كان واحداً من الاستعماريين

الإنجليز ، وقد ادعى أن حكام مصر لم يكونوا مصريين منذ انتهاء عصر الفراعنة على طريقة

أمثاله من دُعاة الإمبراطورية البريطانية ، التي وطدت ملكها عن طريق تزيف تاريخ الشعوب

الأخرى ، حتى ادعى شاعرها (كولريدج) وهو شاعر الملكة فكتوريا ، أن : الشرق شرق

والغرب غرب ولن يلتقيا ، وظلّ هذا الشعار قائماً سنوات عديدة منذ القرن التاسع عشر ، أو

قبله بقليل ، حتى القرن العشرين . ونحن نقرب من نهايته ، ولم يعد الحديث عن الشرق

والغرب هو حديث عالمنا اليوم ، ولكنه أصبح حديث الشمال والجنوب . . . الشمال المتقدم والجنوب المتخلف .

القضية واحدة .

كانوا في عصور الاستعمار القديم يتحدثون عن الشرق والغرب .

وأصبحوا اليوم في عصر الاستعمار الجديد يتحدثون عن الشمال والجنوب .

ولكن موقع مصر جغرافياً وحضارياً وثقافياً بين الشرق والغرب ، وبين الشمال والجنوب ، كان السبب الأساسى في هذه المواقف التى جعلت الصراع العالمى يحوم ويدور حول مصر . إن ما حدث في عصر (على بك الكبير) من تحالفه مع قياصرة الروس الذين أرادوا الوصول إلى المياه الساخنة في البحر المتوسط ، هو ما حدث في عهد جمال عبد الناصر عندما تحالف مع السوفيت ، وكانوا يريدون أيضاً الوصول إلى المياه الساخنة في البحر المتوسط ، أو الوصول إلى قلب إفريقيا عن طريق مصر .

ولكن (على بك الكبير) أو (جمال عبد الناصر) لم تكن لهما رغبة سوى استقلال مصر ، وليس خضوع مصر لقوة عظمى من قوى العالم القديم أو الحديث ، وكان الحلف القديم أو الجديد تعبيراً عن صداقة ، وليس تعبيراً عن خضوع أو مذلة ، ولم يفهم قياصرة الروس في العهود القديمة هذه الحقيقة ، ولم يفهمها أيضاً قادة الحزب الشيوعى السوفيتى في أيامنا ؛ لأن المصالح تطفى على فهم الحقائق .

أنا لم أكن أحب الحديث عن السياسة ، ولكننى وجدت نفسى داخل تيارات فكرية توجهها السياسة ، أو توجه إلى أهدافها عن طريق السياسة ، ولم يعد في استطاعتى الفصل بين الفكر والسياسة .

إن المعلم الأول عند اليونان أرسطاطاليس جعل السياسة أساساً للفكر ، فكيف أفصل بين الفكر والسياسة ؟

والمعلم الثانى في داز الإسلام ، أبو نصر الفارابى ، كانت خلاصة أفكاره هى ما كتبه في كتابه السياسى : آراء أهل المدينة الفاضلة . . . فكيف يتفصل فكرى بين السياسة وبين الفن والأدب والعلم والثقافة ؟

إن مصر كانت دائمة الاتصال بالعالم شرقاً وغرباً ، وشمالاً وجنوباً ، وقد ضعف هذا الاتصال بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح في عهد السلطان الغورى ، وما كان من

استيلاء المستعمرين الأوروبيين على الهند وما حولها ووصولهم إلى شواطئ جزيرة العرب حتى عدن ، فبعث الغورى الأسطول المصرى لمطاردتهم ، ولكن سقوط دولة المماليك أنهى الصراع المصرى الأوروبى ، وبالتالي أضعف اتصال مصر بالعالم الأوروبى ، ولكنه لم يقطع أوصال هذا الاتصال .

ولذلك فإن الأحكام القاطعة التى أصدرها بعض المؤرخين أو الدارسين ، وصارت من القضايا المسلم بها بغير مناقشة ، أصبحت فى حاجة إلى مناقشة .
ليس صحيحًا أن عصر المماليك كان عصر ظلام ، بل إنه كان من أعظم عصور الحضارة المصرية ، وشواهد ذلك ما زالت قائمة فى القاهرة ، فى الآثار الإسلامية الرائعة من مساجد وأسبلة ومدارس ومستشفيات ، بقى منها مستشفى السلطان قلاوون ، أول مستشفى عام وبجانبى فى العالم ، حيث كان يجمع التخصصات الطبية فى كل الأمراض الباطنية والجراحة وطب العيون ، بجانب الصيدلة ، وكان العلاج والدواء فيه بالجنان ، وقد كان يوم افتتاحه من الأيام المشهودة فى تاريخ القاهرة ، وبعد تلاوة القرآن ، وشرب شراب الليمون كالعادة فى الحفلات الرسمية المملوكية ، أعلن السلطان أنه أوقف للمستشفى أوقافًا للإنفاق عليه ، وتبعه فى ذلك الأمراء ، حتى أصبحت أوقاف مستشفى قلاوون كافية للإنفاق ، وظل تابعًا لوزارة الأوقاف حتى عهد قريب منا ، ولست أدري ماذا جرى له ؟

كان رئيس هذا المستشفى طبيب مصرى عالمى هو (ابن النفيس) مكتشف الدورة الدموية الصغرى ، ولا شك فى أن الأطباء من زملاء ابن النفيس كانوا على درجة رفيعة من العلم ، ولكن تاريخهم غامض وأسماءهم مجهولة لنا .

وعندما أقام السلطان قلاوون مستشفاه لم يكن فى أوروبا أطباء ، بل كان ملوكها يطلبون أطباء من مصر لعلاجهم .

ومن مشاهداتى العابرة أننى دُعيت فى خريف عام ١٩٦٨ للمشاركة فى الاحتفال بذكرى مرور مائة سنة على مولد العالم المستشرق الألمانى الشهير (كارل بروكلمان) وكان أستاذى الدكتور إبراهيم بيومى مذكور هو الممثل الرسمى لمصر فى هذا الاحتفال ، ونظم لنا المحفلون من أساتذة جامعة (مارتن لوثر) القائمة فى مدينة (هاله) على مقربة من (لايبزيغ) رحلة لزيارة مكتبة مخطوطات عربية نادرة فى مدينة اسمها (جوتا) . . . وهناك كانت المفاجأة النادرة المثيرة . هذه المكتبة يضم كتبها قصر قديم من قصور البارونات ، ولكل باب من أبواب هذا القصر

مفتاح طوله نصف ذراع ، وكانت هذه المفاتيح الحديدية المثقال في عهدة مدير المكتبة ،
 وتحملها له رجل قوى شديد داخل صندوق من الخشب ، ولها أرقام ، وبدأ المدير يفتح
 الأبواب واحداً بعد الآخر حسب ترتيب الأرقام المكتوبة ، كما كان يغلق الأبواب أيضاً عندما
 يجتازها باباً بعد باب ، وكأننا في طريقنا إلى قدس الأقداس .
 إياك أن تشعل سيجارة .

إياك أن تدوس على خشب الباركيه اللامع في عنف .
 سر على الأرض طائراً كالحمامة .

كان معنا أساتذة من المغاربة والعراقيين والشوام ، وكلهم من فضلاء أهل العلم ، وأمانا
 في الرحلة المثيرة هو أستاذى الدكتور إبراهيم بيومى مذكور الذى حاولت أن أتعلم منه الفلسفة
 والفصاحة ، وهو أحد أعلام المصريين في هذا العصر .

ثم وصلنا إلى القاعة الكبرى في قصر بارون (جوتا) حيث توجد المخطوطات والخزائن
 والكرات الأرضية التى صنعها علماء المسلمين .

المشهد رائع يشبه بانوراما خيالية في عقل إنسان يريد أن يتعلم .

انتقال من عصر حديث مكتوب على بابه ثلاثة حروف من أيجدية يتعلمها الأطفال
 (أ . ب . ت) أو (أيجد .. هوز .. حطى كلمن) في عرف الأيجدية العربية ، إلى عصر قديم
 كان للعلم فيه مكان واحد هو : عقل الإنسان .

أصبحت كل الأيجديات في كل اللغات شيئاً واحداً هو العلم .

وأصبحت اللغة لغة العقل ، وليست لغة اللسان .. أو الحروف المكتوبة .

الطفل ينطق بلغة أبوية ، ولكنه يفكر بعقله ، ويفهم بفكره ، ويتطور وينمو في عصره ،
 وله لغته التى يفكر بها ، ويفهم الحياة والوجود بحروفها غير المكتوبة في كتاب أو المنطوقة على
 لسان .

وفي قاعة المكتبة التى كانت قاعة استقبال في قصر بارون (جوتا) أدركت أن العلم حين
 يصبح سطورياً على ورقة لا يموت عندما يموت صاحبه ، وأن كرة الأرض الساذجة التى صنعها
 رجل مجهول الاسم على قدر علمه بالكون ، إنما هى جزء من عقل الإنسان الذى أراد رؤية
 الكون ، وكانت لغته بالفكر والعقل وليست باللسان أو اللغة ، فصور لكل البشر حقيقة من
 حقائق الكون .

المعلم ليس له وطن واحد ، وليست له لغة موحدة ، وهو ملك للبشر جميعاً ، حتى أن علماء عصرنا وضعوا قواعد للنحو يحاولون تطبيقها على كل اللغات .

وعندما شاهدت في قصر يارون (جونا) الخرائط الملونة لقسمي الأرض في دائرتين لم تكن فيها أمريكا الشمالية والجنوبية ولا أستراليا ، تذكرت (طارق بن زياد) المحارب البطل الذي وصل بفرسه حتى شواطئ الأطلنطي عند الدار البيضاء وقال كلمته المشهورة بعد أن أصبحت قوائم فرسه في ماء المحيط الأطلسي أو بحر الظلمات كما كان يسمى . . . قال طارق :
- يارب . . . لو علمت أن وراء هذا البحر أرضاً يمكن أن أرفع فوقها راية الإسلام لمضيت إليها . . . وسرت نحوها .

كان (طارق بن زياد) يتطلع إلى المجهول وراء بحر الظلمات وهو المحيط الأطلسي أو الأطلنطي ، وكانت هذه الصورة الرائعة البديعة أمام خيالي وأنا واقف داخل هذه المكتبة الألمانية .

تنبه عقلي فجأةً إلى شيء حدث في حياتنا عندما انفصل العلم عن الحياة ، فأصبح العقل وهو من نور الله ملفوفاً داخل أوراق صفراء مطبوعة في مطبعة من مطابع حي الأزهر في القاهرة ، وتذكرت أن أحد المشايخ الأجلاء كتب ألفيةً في الجغرافيا مثل ألفية (ابن مالك) في النحو ، وهي ألف بيت من الشعر المنظوم تحتوي على علم من العلوم .
تذكرت وأنا في مدينة (جونا) شيخ الجغرافيا صاحب الألفية الشعرية المنظومة ، وقد عرفته وكان ابنه من أصدقائي ، وحضرت بعض مجالسه في بيته وأنا في عزّ شبابي ، وكنت أعجب من إصراره على رأيه ، ولست في حلٍّ من ذكر اسمه احتراماً لأستاذيته رغم استبداده في الرأي والمنطق والعقل .

هذا الشيخ صاحب (الألفية في علم الجغرافية) قال :

وأفريقية يا عالمًا بحالي
تحدّ بالبحر من الشمال

وقال أيضاً :

والأرض قالوا إنها كره
وقولهم هذا ما أكفره

وكان من حقى أن أتذكر هذا الشيخ عندما كنت فى مكتبة بارون جوتا ، فقد رأيت الكرة الأرضية ، ورأيت الخرائط التى حدثتك عنها تقسم الدنيا فى دائرتين تؤكد أن الأرض ككرة . . وأن هذا ليس كفرةً كما قال الشيخ .

ولكن هذه الحقائق العلمية لم تكن كل شىء فى هذه الرحلة العلمية المثيرة ، فقد كان فى المكتبة أكثر من أربعة آلاف مخطوط فى العلوم الجغرافية والطبية والصيدلية .

الشىء الهام هو أن هذه الكتب العلمية كانت فى معظمها من تأليف علماء مصريين على رأسهم الطبيب ابن النفيس الذى حدثتك عنه من قبل ، كطبيب عالمى اكتشف الدورة الدموية الصغيرة ، وكان رئيساً لمستشفى قلاوون فى القاهرة .

وما قولك فى أن السلطان حسن بن قلاوون كان قد أنشأ جامعةً كاملةً شاملةً فى الجامع الذى ما زال قائماً فى حى القلعة بالقاهرة ؟

فى هذا الجامع وهو جامع السلطان حسن الذى ضربه نابليون بالقنابل من قلعة صلاح الدين عندما قامت ثورة القاهرة ، أربع قاعات للمحاضرات حسب المذاهب الأربعة فى الإسلام وهى مذاهب :

- مالك .
- الشافعى
- ابن حنبل .
- أبو حنيفة .

وكانت هذه القاعات للمحاضرات تجمع الأساتذة على أعلى مستويات العلم ، حتى كان جامع السلطان حسن مسجداً للصلاة ، وجامعاً أو جامعةً لكل العلوم ، وتحفل بكل الآراء والنظريات العلمية قبل أن توجد جامعات فى أوروبا ، وكانت هذه الجامعة أو الجامع فى أروقها الأربعة ، ومكتبتها ، ومساكن العلماء فيها ، من أبدع وأروع ما قدّمه سلطان مصرى للعلم فى مفهوم الحرية العلمية برغم أن السلطان حسن نفسه كان ظالماً غشوماً على طريقة عصره المستبد الطاغى .

ونحن الآن لا نستطيع أن نفرش جامع السلطان حسن بالحصى الرخيص ، ولكن هذا السلطان استطاع أن يجعل باب جامعهم مصنوعاً من الخشب المشغول بالذهب ، وهذه حقيقة تاريخية ، فقد خلع السلطان المؤيد صاحب الجامع الشهير باسمه عند باب زويلة هذا الباب

الذهبي ، ووضعه على باب جامعہ ذی المئذنتین المقامتین فوق باب زويلة أو بوابة المتولى في عرف عامة المصريين عند حى الغورية .

ثم فقد الباب وسرق الذهب الذى كان مرصعاً على الباب .

وكان السلطان قلاوون قد أعدّ باباً للكعبة الشريفة ، وأراد أن يرصعه بالذهب ، فأثناه العلماء بأن يذقه بالفضة ، فأطاعهم ، وصنع باب الكعبة مرقوماً بالفضة ، وأراد أن يضعه بنفسه فى الكعبة ، ثم حمل هذا الباب فوق مراكب فى النيل حتى وصل إلى قنا ، ثم حمل على الجمال حتى وصل إلى القصير ، وعبر البحر الأحمر حتى ميناء ينبع ، واستمر فى الرحلة على ظهور الجمال حتى بلغ مكة شرفها الله .

وأراد السلطان قلاوون أن يدق باب الكعبة بمسامير من الفضة ، كما أفنى علماء الأزهر ، فعجز عن ذلك ، وقال له النجار الذى صنع الباب ، إنه لا يذ من دقه بمسامير الحديد حتى يثبت فى مكانه ، ثم توضع عليها رؤوس من الفضة كما أراد السلطان الذى دق أول مسمار فى باب الكعبة ، ثم حجّ وطاف وسعى .

وأنت ترى أن تاريخ مصر حلقات متصلة لا أول لها ولا آخر ، وأنا حائر .

من أين أبدأ . . . وإلى أين أنتهى ؟

قد لا يصدق كثيرون أن (محمد بك أبو الذهب) صاحب الجامع والمدرسة المقامة أمام الجامع الأزهر ، ونحتها دكاكين للجزارين ، ومحلات عصير القصب ، والمكتبات ، وباعة السجائر ؟ قد أوقف وقفاً عظيماً لمكتبة المدرسة التى أقامها داخل الجامع ، وهذه الوقفية إحدى دلالات الحضارة المصرية ، وقد نشرت نصّها الكامل مجلة (كلية الآداب) فى جامعة القاهرة ، اعترافاً بهذه القيمة الحضارية العظيمة التى تحافظ مصر عليها عبر كل العصور ، وهى قيمة الكتاب والمكتبة التى تؤصل العلم فى مصر .

وهذه التزعة المصرية ظلت سائدة طوال العصور ، حتى أن القائد الفاتح إبراهيم باشا ، صاحب التمثال الشهير فى ميدان الأوبرا بالقاهرة ، وهو ابن محمد على كان يتفاخر بمصر ، ويقول :

- مصرتنى شمس مصر وأصبحت مصر يا .

وهناك خطأ شائع عن المالك وهو أنهم كانوا يرطنون باللغة العربية ذات اللكنة التركية ، مع أن بعض سلاطين المالك كانوا شعراء ، ومنهم السلطان المؤيد شيخ ، وقد حمل لقب

(شيخ) لأنه كان يحفظ القرآن . وكان ينظم الشعر الغزلى الرقيق الذى كان يتغنى به وكان له شأن عظيم فى عصر المالك ، ولكن المؤرخين لم يهتموا بتسجيل تاريخ هذا الفن الرفيع لأنهم اعتبروه شيئاً تافهًا يسقط هم الرجال ، حتى إن الجبرقى كان يعترض على وجود بيوت الغناء والطرب فى القاهرة ، وقال إن كل بيت من هذه البيوت كان يقف عليه شخص لقبه (الخلبوص) . . . وكان هذا الشخص يعلن اسم كل داخل إلى البيت للسهر والاستمتاع بالغناء والطرب ، وذكر الجبرقى أن بعض علماء الأزهر كانوا يذهبون إلى هذه البيوت ، فيصيح الخلبوص عند قدومهم ودخولهم :

- مولانا الشيخ العالم العلامة فلان .

واشتد الجبرقى فى لوم هؤلاء العلماء لومًا لا ذعًا . وأنت ترى أن هذا الفن الرفيع الذى ذاع وشاع وأطرب الأسماع فى عصر المالك حتى كان واحد من السلاطين ينظم له الشعر ويضع له اللحن ، أصبح فئًا تطارده السلطة فى عصر سلطان آخر بسبب النساء . ولا شك فى أن الألحان التى نسمعها اليوم ليست إلا صدئى لألحان قديمة مصرية أصيلة ، وهى ليست تركية كما يظن أصحاب تاريخ الموسيقى .

إن قصيدة :

وحقك أنت المنى والطلب .

التى غنتها أم كلثوم فى عصرنا ، وقالوا إن ملحنتها هو الشيخ أبو العلا ، ليست إلا قصيدة قديمة جدًا ، ولحنها قديم جدًا ، وهى من نظم شيخ الأزهر وشيخ الإسلام (الشيخ عبد الله الشراوى) ، وقد توارثها المغنون ومنهم (ابن رحاب) أشهر المطربين فى هذا العصر ، وقد كان هذا المطرب رئيسًا لفرقة الشباب السلطانية ، وهى الفرقة الموسيقية التى أنشأها السلطان المؤيد ، وكان ينظم لها الأشعار ، ويلحن لها الألحان .

ونحن لا نعرف كثيرًا عن الموسيقى والغناء فى عصر المالك ؛ لأن الخلط بين هذا العصر وبين عصر الترك العثمانيين ، جعل مؤرخى الموسيقى ينسبون الألحان الشرقية للأتراك . ولكن الغناء والموسيقى فى عصر المالك ، رغم قلة مصادره التى تمكننا من معرفة حقائقه ، كان فئًا هامًا ، حتى إن السلطات كانت تحصل ضرائب كثيرة من أصحابه ، وكان يطلق عليها (رسوم المغانى) ، وفى عصر الغورى كانت طوائف المغنين والمغنيات ومن معهم من أصحاب

الموسيقى ، يتجمعون عند (بركة الرطل) في حيّ الفجالة الحالى ، وكانت (بركة الأزيكية) مقرّ الأمراء والعلماء ، وعند شاطئها أقام (محمد بك الألقى) قصره الشهير الذى حدثت عنه في بداية الكلام .

وقد تطرق الفساد إلى طوائف المغنين والمغنيات الذين اتخذوا مساكنهم حول (بركة الرطل) ، وجعلوا البركة ذاتها مسرحاً لزوارق الليل ، حتى إن بعض جوارى السلطان الغورى هربوا من القلعة إلى (بركة الرطل) مما أغضب السلطان العجوز فأرسل عساكره إلى تلك الأماكن للتفتيش وإثارة الذعر بين أهل الفن مجئاً عن جوارى السلطان .

كل هذه دلائل على أن فن الموسيقى والغناء كان صوت الأجيال جيلاً بعد جيل في حقبة طويلة من الزمان ، فقد ولد الشيخ عبد الله بن محمد الشبراوى سابع شيوخ الأزهر في سنة ١٦٨٠ ميلادية ونحن الآن في سنة ١٩٨٢ ميلادية . .

ثلاثة قرون من الزمان . . ثلاثمائة سنة مضت .

ثم بقيت أغنية شيخ الأزهر مولانا الإمام الشيخ عبد الله الشبراوى هذه السنين الطوال ، ولها لحنها وموسيقاها ، فكيف كانت الموسيقى والألحان من قبلها ؟

في عصر الدولة الطولونية اشتهرت أغنية (قطر الندى) بنت (خاروية) . . ابن أحمد ابن طولون ، في زفافها إلى خليفة بغداد :

الحنه الحنه يا قطر الندى

وما زالت تتردد بلحنها حتى اليوم ، كما كانت هناك أغنيات أخرى غيرها أشهرها أغنية

(سهران ياليل وبالقمر)

وفي عصر المماليك ألف المؤلفون الموسوعات الكبرى في حضارة الإسلام ، ومن أهمها معجم (لسان العرب) أضخم وأهم معاجم اللغة العربية ، وقد ألفه ابن منظور أحد كتاب ديوان الإنشاء بمصر ، وهناك مقدمة ابن خلدون المشهورة ، وخطط المقرئى ، وكتاب (صبح الأعشى) لشهاب الدين القلقشندي ، وغير ذلك من الكتب الجامعة التي تشكل أضخم موسوعات الثقافة الإسلامية .

برغم كل هذه الحضارة الباذخة ، ظل عصر المماليك متهماً ، والأسباب مجهولة ، ولم يقدم أحد من الباحثين دليلاً واحداً على هذا الاتهام ، مع أن تراث الحضارة الإسلامية اجتمع في هذا العصر .

وقد أثرت هذه الحضارة الإسلامية في أوروبا خلال عصر المماليك ، الذى اعتبره امتداداً لحضارة الإسلام بعد انتقال الخلافة الإسلامية من بغداد إلى القاهرة في عهد السلطان الظاهر بيبرس قاهر التتار .

كان سلاطين المماليك وأمراؤهم قد استعربوا بعد أن أسلموا ؛ ولذلك حافظوا على تراث العرب والإسلام معاً .

أما سلاطين الترك من آل عثمان فإنهم أسلموا ولم يستعربوا ؛ ولذلك ضيّعوا تراث العرب والإسلام ، بسبب نزعتهم العنصرية التى جنحت بهم إلى الكفر أحياناً عندما اعتقد العامة الجهلاء منهم أن الجنس التركى أعلى من الجنس العربى ، وقال قائل منهم :

- لو أن محمداً ﷺ عربى فإن الله سبحانه وتعالى تركى .

لعن الله القائل ، ولعن الله القول .

ومن الأقوال الماثورة عن الشيخ الأكبر جمال الدين الأفغانى حكمته الشهيرة التى قالها للسلطان عبد الحميد عندما كانت دولة الخلافة العثمانية فى اسطنبول تلفظ آخر أنفاسها .

قال الشيخ الأكبر للسلطان التركى :

- لو استعرب الترك لعاد للإسلام مجده وعزته .

ولكن الأوان كان قد فات ، وكان الزمان لا يملك إصلاح الخطايا والأخطاء .

وقد احتفظ سلاطين المماليك بعروبة مصر ، ولم يكونوا أصحاب رطانة كما تحيل بعض الناس ، وكان عصرهم هو عصر الموسوعات فى حضارة الإسلام كما قلت لك ، كما كان عصر الفن الإسلامى العربى الذى اشتهر فى الدنيا باسم الأرابيسك أى الفن العربى .

وعندما كانت مصر تملك كل هذه العلوم والآداب والفنون لم يكن للترك شىء من هذا كله ، حتى إن السلطان سليم العثمانى بعد انتصاره على سلطان مصر الغورى فى موقعة (مرج دابق) ، وبعد شنقه للسلطان طومان باى على باب زويلة بالغدرد والخيانة ، أخذ من مصر كل وسائل الحضارة حتى الفردياتى والبغغانية ، وأنت تعرف الفردياتى الذى يلعب مع قرده ويسجبه معه بالسلسلة وييده الطيلة التى يدق عليها بخيزرانة صغيرة يرقص القرد ويمثل ما يطلبه منه صاحبه مثل (عجين الفلاحة) أو (نوم العروسة) وما يشبه ذلك من فنون شعبية مصرية .

أما طوائف (البغغانية) فقد كانوا يقومون بلون آخر من الأدب الشعبى المصرى ، الذى يعتمد على الحوار بين البغاء وصاحبها الذى يحملها معه فى قفص ، ثم يدير الحوار حتى تنطق

البيضاء بالكلمة المناسبة في كل موقف ، وقد أعجب السلطان سليم بهذه اللعبة ، فجمع كل (البغناية) من القاهرة وأخذهم معه إلى اسطنبول حتى يتفرّج عليهم ابنه ، كما أخذ كل طوائف الآلاتية من أصحاب الموسيقى الذين يدقّون على الدفوف والطبول والأوتار ، وتعلم منهم الترك هذه الصنعة ؛ لأن الأتراك كانوا أجلاًفاً لا يعرفون من الأنغام سوى الموسيقى النحاسية ودقات طبول الحرب .

وكان المصريون يعرفون الناي والربابة والطبلة الفخارية والدف والطار وآلات موسيقية كثيرة منها الهارب وآلة القانون التي ابتكرها الفارابي في عصر سيف الدولة وهو عصر الدولة الإخشيدية في مصر ، وقد ظلت الموسيقى المصرية والشامية في كل ألقانها وأنغامها منسجمة متوافقة حتى اليوم لأنها جاءت من مصدر واحد .

حتى أن الشيخ محمد شهاب الدين الشاعر المصري عندما جمع الألحان التي كانت سائدة في عصر محمد علي في كتابه الشهر (سفينة شهاب) لم يستطع أن يفرق بين ألحان مصر والشام فوضعها كلها في كتابه على أنها ألحان العصر .

ولكن القضية التي أثارها كل هذا الكلام . هي قضية اتصال مصر بالحضارة الأوروبية في العصر الحديث ، وهذه القضية معقدة بل شديدة التعقيد ؛ لأن مصر لم تنفصل عن أوروبا بل كانت دائماً الاتصال بشعوب البحر المتوسط في شبه جزيرة البلقان وما حولها وفي إيطاليا وفرنسا وأسبانيا .

وكان هذا الاتصال يضعف في بعض العصور ، ولكنه لا يتقطع ، بل إن أوروبا كانت تعيش دائماً داخل مصر حتى خلال فترات ضعف الاتصال ، فقد كانت في القاهرة حارة الإفرنج قبل قدوم حملة بونابرت ، وقد تحدث الجبرقي كثيراً عن أهل هذه الحارة التي كانت موجودة في حي الموسيقى ، وكانت تضم التجار في غالب الأحيان ، كما كان فيها بعض أدياء الطب الذين أصرّوا بالناس ضرراً بليغاً حتى اضطرت السلطة الحاكمة في أواخر العصر العثماني المملوكي إلى منعهم من مزاوله هذه المهنة .

لقد ضخم المؤرخون المحدثون من قيمة الحملة الفرنسية على مصر التي ظلت ثلاث سنوات أو أكثر قليلاً ، وزعموا أنها كانت بداية العصر الحديث في الحياة المصرية بسبب مطبعة أو معمل كيمياء وطبيعة وما يشبه ذلك من مظاهر مادية لحضارة أوروبا ، حتى اعتقد كثيرون أن هذا الزعم حقيقة ، وكأن مصر كانت في غيابات الجهل والظلام ثم خرجت إلى النور .

وساعد على تضخم هذه الفكرة الساذجة روايات الجبرتي عن مشاهداته عند القرنسين الذين كانوا بغير شك أكثر تقدماً من المصريين في مجالات علمية وفنية كثيرة ، ولكن ليس معنى ذلك أن هذه السنوات الثلاث التي أمضتها حملة بونابرت في مصر هي التي نقلتها إلى العصر الحديث ؛ لأن حضارة مصر المستمرة الدائمة تنتقل بها من عصر إلى عصر حتى هذه اللحظة ، وهي حضارة قادرة على الأخذ والعطاء عبر كل العصور .

ولو صح ما زعموا عن أثر حملة بونابرت على مصر من التعريف بأشكال حضارية مادية أو علمية أو فنية ، فإن عصر عباس باشا الأول يكون أهم من ذلك وأخطر ، حيث أنشئت في مصر أول خطوط للسكك الحديدية بعد اختراعها في إنجلترا ، وكانت مصر هي أول دولة في العالم تستخدم هذه السكك الحديدية بعد بريطانيا ، مع أن عصر عباس الأول كان من عصور الظلام والظلم .

كما كانت مصر أول دولة عرفت السينما بعد اختراعها في فرنسا ، وقد عرضت أفلام السينما الصامتة في القاهرة بعد عرضها في باريس مباشرة ، وكان الذي عرضها هو مخترع هذا الفن بالذات .

إن الواقع التاريخي لمصر يؤكد أنها تملك دائماً حضارةً مستمرة تأخذ وتعطي ، وهي أول دولة في الشرق كله استطاعت وصل حياتها بالحضارة الحديثة قبل حملة بونابرت وبعد حملة بونابرت .

ونحن لا نستطيع تحكيم السياسة في الحضارة ؛ لأن عناصر الأصالة في الحياة المصرية لا يحكمها حاكم ، ولا يتحكم فيها عصر ، وإلا فإنها تفقد قيمتها الذاتية التي تحمل طابع الدوام والاستمرار ، كما أن التخلف والتقدم لا يغيران من طبيعة هذه الحضارة الثابتة ، ولكنه يشكل المدنية في صور عصرية تختلف أشكالها ، وهي في نفس الوقت لا تغير القيم الحضارية لمصر .

إن المدنية هي التي تسبب التقدم والتخلف ، ولكن شعباً مثل الشعب المصرى له حضارة ومدنية ، لا يجوز أن يقال إنه بدأ عصرًا حديثًا في حياته بسبب معرفته للطباعة أو لبعض التقدم في علوم الكيمياء والطبيعة وغيرها ، ولو صحّ هذا الزعم لكان الألمان أعظم قدرًا من الفرنسيين ؛ لأنهم هم الذين اخترعوا فن الطباعة ، وهذا غير صحيح على الإطلاق ؛ لأن العلم لا وطن له ، وهو قسمة مشتركة بين كل الشعوب ، ولو أن بونابرت لم يحضر معه مطبعة لها

حروف عربية ، لاستوردها المصريون من أوروبا قبل الثلاث سنوات التي حدثت عنها . وأنا أحدثك هذا الحديث الطويل ، حتى تعتقد معي أن الحملة الفرنسية لم تكن سبباً من أسباب بداية الحياة الجديدة في مصر ؛ لأن مصر بذاتها وكيانها كانت قبل حملة بونابرت تستعد لعبور مرحلة من مراحل حياتها ، لتصل إلى وجودها المعاصر في ذلك العصر ، مع وجود حضارتها الأصيلة الثابتة .

وأنا أحب أيضاً أن تعتقد معي أن كل ما تقرر من أقوال ونظريات في تاريخ شعبنا ليس قضايا ثابتة لا تختمل المناقشة ، ولكنها قضايا عليها نزاع فكري متراكم يعلوه غبار كثير . إننا في مرحلة إزالة الغبار المتراكم الكثيف فوق تاريخنا الحديث ، وقد أردت بكتابة هذه الصفحات القليلة من حياة عظماء مصر أن نعرف بعض الحقيقة في تيار حياتنا المعاصرة من جانب واحد هو الفكر على اختلاف اتجاهاته العلمية والأدبية والفنية ، ولكن هذا لا يكفي لنفض الغبار .

هناك قضايا كثيرة في التاريخ المصري المعاصر تتطلب منا نفض الغبار عنها . هناك قضايا سياسية واجتماعية واقتصادية لا زالت تؤثر في حياتنا اليوم مع أن عمرها قد يبلغ قرنين من الزمان ، بل إننا لم نجد لها الحل الصحيح رغم الثورات والانقلابات المتتالية قبل حملة بونابرت وبعدها حتى ثورة ٢٣ يوليو ١٩٥٢ التي تعتبر نهاية المطاف في الحركة الوطنية المصرية المتنورة التي وضعت حداً فاصلاً حقيقياً بين التحكم الأجنبي وبين الحكم الوطني . إن تجربة الحكم الوطني منذ عام ١٩٥٢ حتى عام ١٩٨٢ عمرها ثلاثين عاماً في بلد عمره سبعة آلاف سنة .

وقد تفجرت خلال هذه الفترة القصيرة زمنياً ، كل هذه القضايا التي أحدثت عنها ، وكانت أخطر قضية متفجرة أيضاً في هذه الفترة هي قضية الصراع بين السلطة والفكر ، وهذه هي القضية القديمة في حياة مصر ، وهي التي تستطيع أن تشكل مفهوم الديمقراطية المصرية اليوم بعد تجارب عديدة من ممارسة الشعب المصري لحقه في الحياة بإرادته الذاتية الحرة . إن كلّ مشاكلنا اليوم حاول أسلافنا من عظماء مصر إيجاد حلول عملية لها بطريقة علمية أو فنية واضحة ولم يكونوا يعيشون بأفكارهم في ظلام ، بل كان كل واحد منهم له شعاع مضيء .

• رفاة بك. حاول وضع الشيد الوطني المصري .

- على مبارك خطط القاهرة ، وجلب المدنية الحديثة إلى مصر في بناء المدارس ومحطات السكك الحديدية ومراكز البوليس وغيرها من الأبنية العامة . . وأصلح الخطأ في القناطر الخيرية عندما أوشكت أن تنهار .
 - محمد قدرى وضع الشريعة الإسلامية في مواد قانونية مثل قانون نابليون حتى تصبح منفذة في المحاكم .
 - محمود حمدي الفلكي أقام علم الفلك مرة أخرى في مصر بالعلم ، وليس بالخرافة واعترفت به أوروبا .
 - محمد على البقلي تولى تدريس الطب باللغة العربية وأعاد (ابن سينا) إلى الحياة المعاصرة .
 - محمد عثمان جلال نقل إلينا مسرح موليير الفرنسي إلى اللغة العربية ، وعلمنا فن التراجيديا .
- هؤلاء العظماء وغيرهم من الذين يمثلون الحركة الفكرية المصرية المعاصرة ، هم الذين صنعوا لنا ما نحن فيه الآن من رغبة وتلهف إلى مواكبة الحياة العصرية ، وهم في الواقع قطرة ماء في محيط لازالت أمواجه ترتفع ، لتصعد بنا إلى قمة الموجة في دنيا تموج بالفكر علمياً وأدبياً وثقافياً وثقافة .
- عاشوا جميعاً في صراع بين السلطة والفكر وانتصروا جميعاً بالفكر فوق السلطة . حتى الذين أصابهم ضربة الشمس مثل الأستاذ محمد بيومي ظلت أسماؤهم ساطعة فوق الشمس .
- إن مصر المفكرة العاقلة هي التي تدفع أبناءها إلى إعادة صنع الحضارة ، وهي التي تصنع به أبناءها أمثال هؤلاء العظماء جيلاً بعد جيل في حركة مستمرة لا تتوقف ولو تعثرت في بعض الأحيان . . . وسنبداً معاً حكاية هؤلاء الذين صنعوا حضارة مصر في العصر الحديث .

(٢)

خلال رحلة قصيرة عبر الزمان استطاع عدد من العلماء والمفكرين المصريين أن يفتحوا أبواب الحضارة الجديدة .

لقد تبعثرت أسماء عدد من المصريين الفلاحين بين ٢٩١ رجلاً سافروا إلى فرنسا والمجلترا من أجل طلب العلم بين عام ١٨٢٦ و ١٨٤٨ . ولا تعجب إذا سمعت أسماء الخواجة أرتين والخواجة اسطفان وتيمور خسرو وهنرى روسى وغيرهم من الأرمن والشركس وأولاد الذوات بين أسماء أبناء الفلاحين من أمثال الشيخ رفاعه ومحمد بيومى وسيد أحمد الرشيدى وعيسى البحرأوى ومحمد على البقلى وآخرين كثيرين سأروى لك قصة كفاحهم من أجل بناء مصر . والظاهرة التى تلفت النظر هى أن أبناء الذوات ومن لآذ بهم من الأجانب كانوا يتعلمون العلوم الإدارية من أجل تولى الوظائف الحكومية ، وأن أبناء الفلاحين كانوا يتعلمون الآداب والعلوم والترجمة من أجل إثراء الثقافة المصرية .

ويذكر الباحثون المعاصرون اسم (رفاعه الطهطاوى) دائماً كلما تذكروا نهضة مصر الحديثة ، وهذه حقيقة لا شك فيها . فقد روى الدكتور محمد على البقلى أنه بعد عودته من البعثة فى فرنسا ، نال رتبة أميرالاي ، وكانت وظائف الدولة فى ذلك العصر ترتب عن طريق الرتب العسكرية ، فسعى إلى أستاذه رفاعه واجتمع معه فى المدرسة الحربية بالقلعة التى كانت إذ ذاك تحت نظارته ، وقبل يده الشريفة ، وقال له :

« إنى لا أنسى صنيعك على طول الزمان ، وما يزال يلهج بشكرك منى القلب واللسان » . لقد كان رفاعه أستاذ الأساتذة ، وكان أول مترجم نشأ بالديار المصرية من أبنائها كما يقول تلميذه السيد صالح مجدى ، واستطاع بذكائه الخارق أن يكون جيلاً من المثقفين المصريين تسعى إليهم السلطة ، ولا يسعون إلى السلطة . وكان سندهم الوحيد هو العلم .

ولكن رفاعه لم يكن هو الوحيد فى اعتناق فكرة العلم الحديث من أجل بناء مصر ، بل كان له شركاء فى أفكاره ، وكان له تلاميذ أيضاً اعتنقوا الفكرة بإيمان وإصرار .

وخلال الرحلة الأولى القصيرة التى لم تزد عن ربع قرن ، والتى بدأت بها الحديث ، ظهر جيل النوايع من أبناء الفلاحين ، وقبل أن تنتهى الرحلة كان أنبغهم قد مات بضربة شمس فى

الخرطوم ، وكانت وفاته مأساةً داميةً عند جامعة باريس ، فقد حدث أن جاءت إلى القاهرة بعثة فرنسية أوفدتها تلك الجامعة للبحث عن شاب مصرى اسمه (محمد بيومى) رشح للعمل أستاذاً بالجامعة الفرنسية وعرفت البعثة العلمية أنه أرسل إلى الخرطوم ليعمل مدرساً للحساب فى مدرسة ابتدائية ، فأكملت البعثة رحلتها إلى الخرطوم . وحين وصلت إليها ، قابلت رفاة رافع الطهطاوى ناظر المدرسة الابتدائية ، وعرفت منه أن (محمد بيومى) قد مات بعد إصابته بضربة شمس ، وألّف أحد زملاء بيومى من الفرنسيين كتابا عنه سماه (محمد بيومى فى منفاه) طبع فى باريس عام ١٨٥٠ وهى السنة التى لقي فيها هذا النابغة وجه ربه ، بعد أن نفاه عباس الأول مع غيره من الأساتذة إلى الخرطوم .

واستكملت المأساة صورتها فى القاهرة بعد مصرع عباس الأول ، وتولية سعيد ، فقد عاد الأساتذة المنفيون من الخرطوم وعلى رأسهم رفاة . وكان فيهم نابغة آخر هو (أحمد طابيل) تلميذ بيومى وزميله . فقد مات طابيل فى بولاق بعد وصوله بيلتين اثنتين .

وأنا لا أروى هذه المأسى لأزعج القارئ ، ولكن لأضع أمامه صورةً من كفاح هؤلاء العلماء المصريين الذين فتحوا لنا أبواب النهضة الحديثة .

لقد ظلت النظرية التى تقول إن حملة بونايرت على مصر هى التى فتحت أبواب العصر الحديث فى بلادنا تتردد على أقلام الدارسين سنوات طويلة ، وما زالت تتردد حتى اليوم ، وكأنما أصبحت هذه النظرية مما يجب أن نوافق عليه بغير مناقشة .

كتب الأدب والتاريخ تقول ذلك .

أول مطبعة وأول جريدة وأول معمل كيميائى . . وأول صورة رسمت بالزيت . . وأول ناد ليلى اسمه (تيفولى) بحى الأزبكية . . وأوائل كثيرة غير ذلك جاءت مع بونايرت إلى القاهرة .

والشيخ الجبرئى كتب صفحات عن العجائب والغرائب التى شاهدها عند الفرنسيين كل ذلك صحيح .

ولكن هل معنى ذلك أن الفرنسيين قد غيروا الحياة المصرية التى كانت قائمة تحت حكم المماليك ؟

لقد فتح المصريون عيونهم على هذه العجائب والغرائب ، ولكنهم لم يقرءوا كتاب (وصف مصر) الذى ألفه علماء حملة بونايرت ، ولم يستولوا على مطبعة بونايرت ذات الحروف العربية ، ولم يتعلموا العلم الحديث الذى أذهل عقل الشيخ الجبرئى .

الشيء الوحيد الذى تعلّمه المصريون من حملة بونايرت هو أن هناك حياة جديدة لم يعرفوها من قبل ، ويجب أن يعرفوها .

وعندما جاء محمد على وولاه المصريون أمرهم لأنه تركى عثمانى يقبله السلطان خليفة المسلمين ، كانت تطلعات الشعب المصرى تتجه نحو الثقافة الجديدة التى شاهدها عند الفرنسيين .

كان المصريون يريدون بناء وطنهم على أسس جديدة عصرية . بل كان الاتجاه السائد فى الأزهر هو هذا الاتجاه العصرى ، وليس أدل على ذلك من أن الشيخ حسن العطار شيخ الأزهر اشتغل بالعلم الحديث ، وتعلم بعض اللغات ، وألف رسالة سماها (كيفية العمل بالاسطرلاب) ، كما قبل كبار مشايخ الأزهر ومنهم الشيخ عبد الله الشرقاوى والشيخ الفيومى والأمير وغيرهم أن يصورهم الرسامون الفرنسيون فى لوحات زيتية معروفة ، دون اعتراض أو فتوى بتحريم التصوير .

وعندما أوفدت البعثات إلى فرنسا كان من بين أعضائها : الشيخ زناقى والشيخ أحمد عليه والشيخ محمد الدشطوطى والشيخ أحمد العطار والشيخ عبد الله والشيخ محمد عيسى والشيخ حسن والشيخ نصر أبو الوفا والشيخ أحمد الرشيدى والشيخ حسن غانم والشيخ إبراهيم الحكيم .

والحقيقة أنه لم ينبغ من الأزهرين نبوغاً خارقاً غير الشيخ رفاعة إمام البعثة ، ثم تعلم الطب ونبغ منهم الشيخ أحمد الرشيدى والشيخ نصر أبو الوفا والشيخ إبراهيم النبراوى الحكيم . أما المشايخ الآخرون فقد أهملهم التاريخ .

وحق نستكمل صورة الرحلة القصيرة التى قام بها أبناء الفلاحين من أجل بناء مصر الحديثة . سنتحدث عن أولئك الرواد الذين صنعوا المعجزة .

وأبناء هذا الجيل لا يعلمون أن جيلاً قريباً منهم . . لا يبعد أكثر من مائة عام قام بعمل لم يصل إليه بعد ، فهؤلاء الرواد استطاعوا أن ينقلوا العلوم الحديثة إلى العربية . وأن يدرّسوا هذه العلوم بالعربية ، وجامعاتنا اليوم تدرسها باللغة الإنجليزية .

ولنقف معاً مع هؤلاء الأساتذة الكبار ، ولنبدأ بمدرسة المهندسخانة أو كلية الهندسة كما نسميها اليوم .

كان كبير الأساتذة أصغرهم سناً وهو (محمد بيومى) الذى رويت لك مأساته فى البداية ،

وأصله من دهشور ، سافر إلى فرنسا وعاش بها تسع سنوات ، وبعد عودته عُيّن مدرسًا بمدرسة المهندسخانة ببولاقي ، وتلقى عليه العلم من كانوا أكبر سنًا منه ، ثم أصبح كبير الأساتذة عندما كان ناظر المدرسة (لا بير بك) الفرنسى . وكان يومية يدرس باللغة العربية ، وأصدر كتبًا بعضها مؤلف وبعضها مترجم ، ومنها كتاب (جبر الأتقال) وكتاب (الجبر والمقابلة) وكتاب (ثمرة الاكتساب فى علم الحساب) وكتاب (الهندسة الوصفية) وكتاب (جامع الثمرات فى حساب المثلثات) وكل هذه الكتب طبعت بين عامى ١٨٤٠ و ١٨٤٧ .

أما المعيد الذى عمل مع يومية فهو (أحمد دقلة) وهو من بلدة بسيون بمحافظة الغربية ، وقد تعلم فى فرنسا ، وترجم كتاب (رضاب الغايات فى حساب المثلثات) . ومن أساتذة الهندسة (أحمد فايد) الذى أقام فى فرنسا عشر سنوات ، ثم عين بعد عودته مدرسًا للرياضيات بالمهندسخانة ، ثم أصبح وكيلًا لها ومن مؤلفاته (الأقوال المرضية فى علم بنية الكرة الأرضية) ترجمه عن الفرنسية ، وكتاب (تحرك السوائل) وكتاب (الدرّة السنية فى الحسابات الهندسية) .

أريد أن أقطع هذه الرحلة الهندسية حتى لا نزهد فيها ، ولتحدث عن الطب الذى كان يدرس فى مصر باللغة العربية منذ مائة عام !

الأسم الأول اللامع هو : الدكتور محمد على البقلى ناظر مدرسة الطب وكبير أطباء وجراحى مستشفى قصر العينى . وأصله من بلدة (زاوية البقلى) بمركز منوف حيث ولد بها عام ١٨١٥ ، ودرس بالمدارس المصرية حتى تخرج فى مدرسة الطب التى كان ناظرها كلوت بك ، ثم سافر إلى فرنسا ونال درجة الدكتوراه عام ١٨٣٨ ، واستشهد فى حرب الحبشة عام ١٨٧٦ حيث كان رئيسًا لأطباء الحملة .

وقد ألف كتبًا هامة كانت تدرس فى مدرسة الطب ، ومنها (روضة النجاح الكبرى فى العمليات الجراحية الصغرى) وكتاب (غرر النجاح فى أعمال الجراح) ، وكتاب (نشر الكلام فى جراحة الأقسام) وكتاب (غاية الفلاح فى أعمال الجراح) .

وهناك أزهرىان نبغا فى دراسة الطب هما الدكتور إبراهيم التبراوى والدكتور أحمد حسن الرشيدى .

وبعد أن أتم التبراوى دراسته فى مدرسة الطب أوفد إلى باريس ، وتزوج فتاة فرنسية ، وعاد إلى مصر ليعمل مدرسًا بمدرسة قصر العينى . وترجم عن الفرنسية كتاب (الأربطة

الجراحية) وكتاب (أصول الطبيعة والتشريع العام) و(الفلسفة الطبيعية) والكتابان الأخيران من تأليف كلوت بك ناظر مدرسة الطب .

أما الدكتور أحمد حسن الرشيدى ، فقد أوفد إلى فرنسا أيضًا بعد أن أتم دراسته في مدرسة الطب وبعد عودته من البعثة اشتغل بالتدريس ، وألف تسعة كتب في مختلف أنواع المعرفة الطبية .

وفي عبور سريع حول هذه النهضة ، نذكر الدكتور محمد الشافعى ناظر مدرسة الطب الذى ألف وترجم ثلاث كتب . والدكتور محمد الشبامى وله كتابان ، والدكتور عيسى النحرولى وقد ترجم كتابًا في (التشريع العام) ، والدكتور حسين غانم الرشيدى مؤلف (الدر الثمين في فن الأقرىاذين) ، وهو أستاذ الصيدلة ، والدكتور محمد عبد الفتاح وله أربعة كتب . ونستطيع أن نقول إن هؤلاء العلماء وضعوا أساس العلم الحديث في مصر ، خلال رحلة قصيرة ربطت بين مصر وأوروبا خلال ربع قرن من الزمان .

ولا أريد أن أنسى أشياء أخرى في الحضارة نقلت إلى مصر . فقد كان الذين درسوا العلوم العسكرية نواة لإنشاء الجيش الجديد الذى وصل إلى أبواب قسطنطينية وأوشك أن يسقط الخلافة العثمانية .

ولا أريد أن أنسى أيضا (يوسف أفندى) ناظر مدرسة الزراعة في شبرا ، والذى درس العلوم الزراعية في فرنسا ، ونقل إلى مصر فاكهة الماندارين ، ثم سميت بعد ذلك باسمه هو ... ولا زالت تسمى حتى اليوم باسم (يوسف أفندى) .

وبعد هذه الرحلة قامت في مصر المدرسة التى ترجم المتخرجون فيها أكثر من ألفى كتاب في مختلف العلوم والآداب والمعارف ، وهى مدرسة الألسن التى أنشأها رفاعه رافع الطهطاوى . وقد قسم السيد صالح مجدى تلميذ رفاعه أبناء هذه المدرسة إلى ثلاث طبقات ... وذكر أسماء مشاهيرهم .

وأبناء هذا الجيل لا يذكرون أسماء هؤلاء الرواد ، ولهم عذرهم ، فقد وضعت الكتب التى ترجموها في غرف مغلقة ، ولم يهتم بها أحد ، إلا في بعض المناسبات .

لقد كتب صالح مجدى عن واحد من هؤلاء الرواد وهو (محمد أفندى عثمان) فقال : « فريد العصر ، وفارمن ميدان النظم والنثر ، البارع في كل فن ، صاحب تعريب (العيون اليواقظ) و (قبول ووژد جنة) وغير ذلك من التأليف البهية » .

والرجل الذى كتبت عنه هذه السطور هو محمد عثمان جلال مترجم مسرحية (الشيخ متلوف) . . أما (قبول ووزد جنة) فهى مسرحية (بول وفرجينى) .

وكتبت صالح مجدى عن واحد منهم أيضاً هو (محمد قدرى) قائلاً :

«الأوحد ، الذى هو فى كل فن مفرد ، وهو صاحب التراجم والتأليف العديدة والتصانيف المفيدة ، فى العربية والتركية والفرنساوية ، ولهذا المفرد العلم الناظم النائر من الكتب الجارى تدريسها بالمدارس الميرية وغير الميرية ما يشهد له بأنه فى مضمار المعارف سابق أوانه ، ليس له فى أمثاله لاحق ، وعلى الحقيقة فهو أنبل فارس منح أوطانه من علومه بديع النفائس » .

وقد اشترك محمد قدرى مع أستاذه رفاعة فى ترجمة (قانون نابليون) المسمى عند رجال القانون باسم (الكود) . واستطاع أن يقدم للثقافة القانونية العربية أخطر كتاب ظهر فى العصر الحديث ، وهو كتاب (مرشد الحيران إلى معرفة أحوال الإنسان) ، وهذا الكتاب يضم الشريعة الإسلامية على مذهب الإمام الأعظم أبى حنيفة ، فى تقسيم عصرى مثل (قانون نابليون) ويضع قواعد الشريعة فى مواد قانونية محددة على النمط الحديث .

وقبل أن نعبّر إلى الرحلة الثانية للثقافة المصرية الحديثة . . يجب أن نقف وقفة تأمل عند شخصية رجل فلاح من بلدة برنبال بمركز دكرنس بمحافظة الدقهلية . . اسمه على مبارك . ولا أريد أن أتحدث عن على مبارك رجل التعليم كما اشتهر عنه ، ولا مؤسس مدرسة دار العلوم ودار الكتب . . ومؤلف الكتب الهامة وأهمها كتابه (الخطط التوفيقية) ، ولكننى أريد أن أتحدث عن صانع الحضارة الحديثة .

إن على مبارك هو مخطط القاهرة الحديثة ، وبانى دورها الحكومية وقصورها ومدارسها وحدائقها ، وله يد فى كل ما نشاهده اليوم من مياه فى المنازل ، ومصابيح فى الشوارع ، وهو منقذ القناطر الخيرية من الخلل ، وبانى محطات السكك الحديدية فى أرجاء مصر على نظام معارى موحد ، وهو أول من استخدم السكك الحديدية لنقل البضائع ، وهو الذى سافر إلى باريس ليشاهد نظام المجرى فى العاصمة الفرنسية حتى ينقله إلى عاصمة مصر ، ولكنه للأسف الشديد لم يفعل ذلك بسبب الأزمة المالية التى حدثت فى عصر إسماعيل .

وقد لا يصدق كثيرون أن الكهرباء وصلت على يدى هذا المصرى العظيم وإلى منطقة الأهرامات وكانت تسمى (الكتريك) ، فلم يلتفت كثيرون من الباحثين إلى هذا العمل

الحضارى الهام لأن كلمة كهرباء لم تكن معروفة فى ذلك الزمان ، واستخدمت الكلمة الفرنسية (الكترىك) كما هى .

لقد انقطعت رحلة الحضارة المصرية عندما تولى حكم مصر عباس الأول . . ثم سعيد . ولكن الرحلة الثانية إلى أوروبا ما لبثت أن بدأت وكان رفاة الطهطاوى ينظر إلى رجالها بعينين ضاحكتين ، فقد أصبح تلاميذه رجالاً كباراً لم تنقطع عزيمتهم عن مواصلة العمل لبناء مصر الحديثة .

وكما كانت الرحلة الأولى رحلة علم . . كانت الثانية رحلة علم أيضاً ، وكان عدد أفرادها ١٧٤ مسافراً ذهبوا للدراسة الطب والهندسة والحقوق والبحرية والزخارف ومختلف الفنون ، وبلغت نفقات الرحلة ١٦٣,٦٥٧ جنيهاً مصرياً .

والأمر العجيب الذى يلفت النظر إلى الرحلة الثانية من رحلات الحضارة ، عادت بطبيب شهير هو الدكتور محمد درى ، كما عادت الرحلة الأولى بالدكتور محمد على البقل ، وتولى الدكتور الدرى نظارة مدرسة الطب كما تولاها زميله السابق ، وكان مثله أشهر جراح فى مصر . وأهم أعمال الدكتور محمد الدرى هو إنشاء مطبعة لطبع الكتب الطبية على نفقته الخاصة ، فقد أنشأ فى حارة السقاين (المطبعة الدرية لطبع الكتب الطبية) . وأصدر عدداً من المؤلفات أهمها (بلوغ المرام فى جراحة الأجسام) وكتاب (الإسعافات الصحية فى الأمراض الوبائية) . ولا يصح أن ننسى الدكتور سالم الذى درس فى ألمانيا ، فقد ألف ثلاثة كتب هامة كانت تدرس بمدرسة الطب .

لقد بدأت مصر تصحو . .

ولكن حدث الصراع الرهيب بين إسماعيل وبين الشعب . . وحدث التدخل الاستعمارى الأوروبى . . وسقط إسماعيل بين براثن المرابين . . وبدأت عيون أبناء الشمال تتطلع إلى استيلاء على درة وادى النيل .

كانت شعلة الحضارة متوهجة ، وبدأ أبناء الشام يتعلمون الطب فى مدرسة قصر العيني ويتخرجون فيها ، وبدءوا يتجهون إلى القاهرة والإسكندرية لاقتطاف ثمرات النهضة الجديدة . .

العلوم بدأت تزدهر .

والآداب بدأت تثمر . . ويتربع البارودى على عرش الشعر العربى . . ويبدأ شوقى أول

خطوة نحو إمامة الشعر . . . ويترجم عثمان جلال المسرح الفرنسي وتمثل مسرحياته في دار الأوبرا . . . ويكتب عبد الله فكرى بأسلوب جديد بعيد عن السجع والمحسنات البديعية . عروس الدنيا بدأت تترين ، وبدأ أبنائها يعيدون صنع الحضارة . وكما سقط إسماعيل بين برائن المرابين . . سقط بين أيدي المستعمرين . وجاء أبناء الشمال لإطفاء الشعلة المتوهجة على شاطئ النيل . وانتهت الرحلتان . . وأصبحت مدرسة الألسن فندقاً اسمه (فندق شبرد) . . ووضعت قصة الحضارة التي سهر على بنائها عشرات من علماء مصر في مخازن عليها أقفال ثقيلة . لم يعد أحد يذكر قصة الألفي كتاب التي ترجمها تلاميذ رفاة الطهطاوى . . ولم يبق شيء إلا متلوف الذي أصبح اسمه الآن (متلوف ٧١) . وأصبحنا نقول إن هذه الأعمال الجليلة التي طفت بها سريعاً . . يمكن أن تكون من التراث المصرى . . ولما يمض عليها أكثر من مائة عام ! !

ولكن الذى حدث هو أن جامعة دمشق أخذت هذا التراث المصرى ، وعربت به مشكورة علوم الطب والهندسة .

ويبدو أننا فى حاجة إلى رحلة داخل القاهرة أو إلى سوهاج حيث توجد مكتبة رفاة لنكسر الأقفال التى وضعت على باب الحضارة المصرية الحديثة ونخرجها مرةً أخرى للناس . . ولنبدأ بها رحلةً جديدةً من رحلات الحضارة المصرية الحديثة .

العظماء

- ١ - الشيخ حسن العطار .
- ٢ - رفاعة بك .
- ٣ - محمد بيومي أفندي .
- ٤ - على مبارك .
- ٥ - محمد قدرى .
- ٦ - محمود حمدى الفلكى .
- ٧ - عثمان جلال .
- ٨ - الدكتور محمد درى .
- ٩ - الدكتور محمد على البقلى .
- ١٠ - عبد الله فكرى .
- ١١ - محمود فهمى المهندس .
- ١٢ - قاسم أمين .
- ١٣ - قلىنى فهمى .
- ١٤ - أمين الرافعى .
- ١٥ - الدكتور على إبراهيم .
- ١٦ - أمين الخولى .